
الدنيا
بتمطر
كرم صابر
مدونة أبو عبدو
ابو عبدو البغل

الدنيا بتمطر

مجموعة قصصية

كرم صابر

عنوان الكتاب : الدنيا بتمطر

مجموعة قصصية

تأليف: كرم صابر

الطبعة الأولى: ٢٠١٠

تصميم الغلاف: مينا عبد الله

مرايا للنشر والتوزيع

سنتر الأردنية ، الحى السابع ، مدينة ٦ أكتوبر

ت: ٠١٠٧٢٢٣٨٠

بريد إليكترونى: marayapress@windowslive.com

الإخراج الداخلى: أبسليوت / ستوديوز

ت: ٠١٩٢٠٨٦٠٠٥

بريد إليكترونى: info@absolute-studios.com

رقم الإيداع ١٠٦٤٣

كرم صابر: أديب مصرى نشأ فى مدينة الوراق وقت أن كانت قرية يعمل أهلها بالزراعة قبل أن يدمجها الزحف العمرانى بالقاهرة ، وبدأ العمل بالمحاماة عام ١٩٨٩ ؛ نشر العديد من الأعمال السردية منها المتهم وأين الله ورائحة الأنوثة وعشق الحياة وفؤاد المدينة وطائر النسيان ومريم العذراء وكلاب السكك.

طبعة إلكترونية : ٢٠١٥

إهـداء

إلى كل الذين فقدناهم إلى الأبد

"أحلام المحرومين"

يسكن بمنزل ملاصق لمنزلنا فى الحارة، تحيرنى يومياته المتكررة، فحين يؤذن الفجر، نسمع صراخه مع زوجته التى لا تلين له، وهي تشتمه بأقذع الشتائم.

يواظب قبل خروجه من البيت على غسل " جوزته "، ورص حجر المعسل؛ ليشربه مع كوب الشاي، ثم يخرج من باب منزله، الذي لم أره يومًا محكم الغلق ليدخل زريبة المواشي، يضع الحمل على الجمل، ويلبسه الكمامة؛ حتي لايعض أحدًا، ويبدأ فى تحمليه الروث.

لم يتكلم قط مع أحد، وحين كانت أمي أو أختي تطلبان منه شرب الحليب، أو أكل رغيف الفول، ينظر إليهما ضاحكًا، ويفرغ الكوب فى معدته ثم يعاود ملء المقطف بالروث ليضعه بحمل الجمل فى صمت.

تمتلئ ملابسه الخفيفة عرقًا، وبقع روث، وتظهر الشقوق فى يديه وهو يقوم بتحميل الجمل ويزجره ليقف على رجليه، ويسحبه لخارج المنزل ويمشي وراءه يتفرج على أنيسة بائعة الطعمية، أو هنيدي البقال، أو مندوه القهوجي، دون أن يبدي أية مشاعر تجاههم ، كان ذلك يغيظهم، ويتندرون عليه، ويشتمونه، وهو كالجمل، ينظر إليهم ويضحك.

فى اليوم الوحيد الذي غاب عن عمله ، نادت أمي عليّ وقالت: "روح انده يا واد للسلاموني".

كاد صوتها يخنقني لتكرارها الطلب فقد كنت منشغلاً بالعِجْلة التى ولدتها البقرة الكبيرة وتعليمها الكلام والمشي.

أعادت صراخها: "يا بن المجنون روح انده للسلاموني، مين اللي هيشيل الوحلة؟ أبوك هيفضحنا يا واد".

اضطررت أمام إلحاحها ترك العجلة والذهاب إلى منزله ، وناديت: " يا سلاموني "، لم يرد على أحد، فدخلت منزله الذي لم يحكم إغلاق بابه، وناديت: " يا سلاموني "، الظلام يملأ مدخل البيت، المكون من حجرة وحمام وسلم بالطين يصل إلى السطح الذي لم يطلعه قط.

ناديت مرة ثانية. لم يرد أحد.

دخلت الحجرة ، كان السلاموني غارقا فى دمائه هو وزوجته، صرخت: " ياعم سلاموني، يا ست أمينة "، لكنهما لم يردا، كانا ينظران إلىَّ بعيونهما المبتسمة، وأفواههما المفتوحة، وكانت دماؤهما تملأ أرضية الحجرة.

هربت من المنزل، ورويت لأمي ما شاهدته، فقامت فزعة، وصرخت فى الشارع: "السلاموني اتقتل".

على إثر صرختها، خرجت النسوة والرجال من منازلهم مفزوعين ليتأكدوا بأنفسهم.

فى هذا اليوم لا أتذكر إلا وجوه بعض المخبرين، والأمناء وضباط المركز مع العمدة وشيخ البلد، وهم يلتفون حول منزلنا ويتساءلون: " كيف حدث ذلك؟ "

تذكر القهوجي يومها أن السلاموني مقطوع من شجرة، وليس له إخوة أو أعمام أو أخوال، حتي زوجته التى تعمل بالسوق، وتكلم نفسها باستمرار وتحكي مع بطها وأوزها باعتبارهم أبناءها وعائلتها الوحيدة، لم يُعرف لها أهل.

تذكر جدي يومها أنه زوَّجها السلاموني دون أن يراها أو تراه، لكنها قط لم تلن ولم تنجب له الأبناء!

تذكر عمي أنه لم يغب عن العمل يومًا واحدًا منذ طفولته، ولم يخرج من القرية إلى المدينة ولو لمرة واحدة، ولم يشاهد فى حياته إلا روث البهائم وحقول البرسيم والذرة، وزوجته التى لم تلن لرغباته ابدا.

تذكر الحلاق، أنه لم يكن يستحم إلا كل عيد، وكانت رائحته المليئة بالعرق وروث البهائم تدفعه للصبر والتحمل والحب، وقال أبي: " إنه لم يطالبه قط برفع أجرته، أو بجلباب جديد، أو بطعام يشتهيه ".

كان يعمل ويأكل معنا، دون أن ندري أن للسلاموني مطالب مثلنا، لكن الجميع تذكروا مواظبته على شرب حجر المعسل عند استيقاظه صباحًا، وقبل نومه بعد أذان العشاء.

تناثرت الحكايات إلى أنه تشاجر مع زوجته التى أصر على أن تلين لجسده بالقوة ؛ هددها بإجبارها على خلع ملابسها، والرقص أمامه كما ولدتها أمها، والسماح لقضيبه بالمرور بين أفخادها، حتى لا يفعصها بين يديه.

أمسكت بالسكين وغرسته فى قلبه، وحين حاول أن يقوم مرة أخرى وهو مطعون ليبرك عليها، ويعاشرها كبقية خلق الله، فقد كان منتشيًا عن آخره ، قتلت نفسها.

حين ضممنا منزله إلى منزلنا، لنبني مكانهما عمارة يسكنها الأغراب تذكرته، وسألت نفسي: "ما لحظات المتعة والسعادة التى كانت بحياته؟ كيف استطاع أن يعيش صامتًا بشوشًا، رغم قسوة الدنيا التى حرمته كل متعها؟ "

"الدم"

كم مرة أمسكت عصاى وسكيني وجرحت المارة؟ كم مرة أذهلك لون الدم وطعمه؟ كنت كالحمل الوديع قبل هذا اليوم الذي شاهدت فيه ابن جيراننا يلقي التراب على زراعتنا الندية كان يكبرني بسنتين، طلبت منه الكف عن دهس البرسيم؛ حتي لا يموت، أمسكت أعواد البرسيم الميتة، وقلت: " أليس فى قلبك رحمة؟ لا تلقِ بالتراب مرة أخرى على برسيمنا ".

سخر مني، وقال: " ماذا ستفعل إن لم أتوقف؟ " وأمسك " بالمحشة " ليقطع البرسيم مجددا، فقلت: " سأقتلك ".

ضحك عن آخره، وقال: "وريني"، لم أدر بنفسي، طرت فى وجهه، وأدخلت أصابعي فى عيونه، ليرتمي على الأرض، ويصرخ بعد نزف الدم من عيونه.

لم أتذكر من مشهد الجمع الذي أتي ليغيثه مني سوى اندهاشهم، وقولهم وهم يرفعونني من فوقه " يخرب بيت أمك، كفاية خرمت عينه ".

اليوم أتذكر الجروح والندوب التى تملأ رأسي وجسمي وأتساءل كم مرة نزف رأسي؟ هل تتذكر لون البنطلون الجينز بعد تشربه الدم وأنت خارج من العركة التى دارت بالمنطقة بين عائلتك، وعائلة الأوريطي؟ كانت زجاجات البيبسي والبيرة تطير أمامي، وأنا كالفراشة أتفاداها وأدخل عليهم بسنجتي، أقطع فى أجسامهم.

كم شخصًا جرحته فى هذا اليوم؟

هل تتذكر منظر الرءوس المشجوجة والدم ينزف منها؟ هل تتذكر كرش أحمد خوخة وهو ملقى على الأرض ، ولا يستطيع أحد من عائلة الأوريطي أن يغيثه؟ هل رأيت الساطور الذي خبطك به " على وزة " وهو يجري خوفًا منك ، فجرح رأسك ، ولم تحس بالدم، ولا الجرح حتي انتهت العركة؟ هل استطعمت الدم الذي كان يجري بين شفتيك، وكنت تبتلعه إلى معدتك؟ أيامها كنت تستفز الناس فى الشارع، وتتحدى ضعفهم حتى يرفض أحدهم جبروتك فتقول سعيدًا: " إنت جبته لنفسك، تعالَ ".

هل تتذكر " ابن عايدة الحايكة " حين سرق جهاز تسجيل المدني واتهموك ؟ تحملت نظرات عيونهم المفزعة، وسألتهم: " من دخل المنزل آخر مرة؟ من يصاحب بنتكم داليا؟ " كدت تصدق أنك أذكي محقق بعد تيقنك من أنه ولا غيره هو السارق ، كان يراقب أم المدني منذ ثلاثة أيام،

ويعاين المنطقة، لم يلفت نظرهم جميعًا خلال الأيام الثلاثة الماضية سوى وجود " ابن عايدة الحايكة " على ناصية الشارع.

قمت مرة واحدة، ولبست حذائي فى ثانية، ولم يصدقوا استنتاجاتي إلا بعد أن وجدوني ممسكا برقبة " سالم بن عايدة " بعد أن جرحته فى رأسه والدم سايح على ملابسه، وهو ممسك بجهاز التسجيل، يسلمه لأم المدني ويعتذر لها.

قالوا: " خلاص، سيبوا يا خويا، ما دام جاب التسجيل "، لكن يدي كانت تتشفي باللكمات التى تفاجئه بوجهه، وامتلأت أكمام جلبابي بالدم، فأمسحه بوجهي ولساني.

كان فكه يحتاج أيادى عشرين رجلا تجمعوا عليّ لينقذوه مني، هل تتذكر منظر انهياره، حين ضربته بالكف على وجهه وهو يدعي أنه كان مسافرا؟ حين رفعت قدمك ووضعتها على وجهه بعد إلقائه على الأرض، قلت: " سأقتلك "، حاول الناس أن يقتربوا، فأرسلت شعاع النسر عليهم، فتحجرت أقدامهم وسألته أمامهم: " فين التسجيل يا سالم، لن يرحمك أحد مني، فين التسجيل يابن الشرموطة؟ " حين شاهد الموت فى عيوني خر معترفا: " التسجيل فى البيت، سبني وأنا هجيبوا " لكنك أحكمت قبضتك اليمني على رقبته وأمسكت خصيته وقلت: " لا تشترط يا بن الفاجرة " مشي ساكتا حتي منزلهم وسرت ممسكا برقبته ودمه ينزف على يديك فتمسحه بأكمامك وتتذوقه.

تحجر جمع الناس، ولم يتحرك إلا حينما عدت بجهاز التسجيل إلى منزل أم مدني كي يسلمه لهما، لم يرحمه مني، إلا نظرات الضعف وهو يطلب العفو، لكن أيادى عشرين رجلا كانت وحدها كفيلة بأن أصدق انهياره.

"**سيدة**"

وقفت " سيدة " على ناصية الحارة تنتظر " حمو " وهو عائد من مشاجراته المتكررة كي ترى وجهه الصبوح، وقهقهته العالية؛ لتحس بالأمان.

حينما لمحته فى آخر الشارع ، وهو يملأ الدنيا ضجيجًا، ويمسك السنجة دون جرح يديه هدأ نبض قلبها.

كانت تعلم أنه سيأتي إليها يومًا ما مقتولاً و محمولاً على الأكتاف وهوغارق فى دمائه، كانت لا تنام كل ليلة إلا بعد سماع صوته، وهو يملأ الحارة بهجة.

يصارع "حمو" الدنيا، ولم تتوقف حكايته على القهاوي عن البطولة والمجد، يملأ الشوارع بجبروته وقوته المندفعه نحو المجهول ومع ذلك كان يعشق " سيدة "، ويحاول بهذه القصص التأكيد بأنه الرجل الوحيد الذي يستحق قلبها الغارق فى البياض.

يعرف وحده أن قلبها لم تلوثه شائبة، رغم ما هو معروف عنها من سلاطة لسانها وفجرها، وحين لمحها على مدخل الحارة طار واحتضنها، ودخل معها بين الجدران، استطالت قامته فوق كل منازل الحارة كالعصفور الذي التقط أنفاسه، ووضعها فى منديله، ليدخل حجرة أمه لينام أحلى ليلة، ابتهجت فيها الحارة بعودة "حمو" سليمًا.

لم ينس وهو يحكي للفتيان أن سائق الباص والركاب حين دخل عليهم هو و "سيدة " ليلة أول أمس لم تتحمل أعينهم بياض قلب حبيبته، فوقف السائق وطلب منهم النزول ، لكن حمو رفض طلبه وقال: " لا تفتح فمك حتى لا أوذيك "، هاج الركاب الذين ملأ وجوههم الغل، لكن " حمو " كالفراشة احتضن " سيدة " ونزل من الباص، وقبل أن يتحرك الباص أخرج مطواة وفجر إطاره الأمامي.

وحين هدده سائق الباص بأنه سوف يبلغ الأمن، قذف " حمو " فى وجهه بالمطواة، فسال الدم من جبينه الذي أذهل الركاب وتقهقروا وتركوا " سيدة " الجميلة العايقة تمر بأمان من وسط جمعهم الكئيب.

تحدث أحد الركاب العجائز عن الموت، فانطلق " حمو " وراء " سيدة " مملوءًا بفخر، لم يتعوده ركاب الباص المنكسرون، لكنهم ذهلوا وفرح بعضهم ، كما قال أحد الشهود؛ لأن هناك أبطالا مثل " حمو " و نضارة وبراءة مازلوا بقلب امرأة تسمي "سيدة".

فى هذا اليوم الذي عاد فيه من مشاجرته الأخيرة، جلست على ناصية الحارة، منتظرة قلب حبيبها الطائر كي يدخل حجرة أمه، لينام معها ليلة أخرى تتحاكى بها الحارة، لكن قلب "حمو" لم يحتضنها آخر الليل.

كان قلبه قد أفرغ كل الدم المملوء برائحتها فى الشارع، الجميع وقفوا مذهولين من صوتها الذى أفزعهم للحظة، وأوقف مسيرة حياتهم، وجعلهم يتحسرون لعدة سنوات قادمة على فقدان أجمل امرأة، ممتلئة برائحة الأنوثة لأنها ماتت عصر اليوم التالي من البكاء.

"البهجة المفقودة"

يلبس خالي " فهمي" أفخر أنواع الثياب، ويدخن السيجار والحشيش المغربي، ويعشق النساء، ويستمتع بالحياة بطريقة أذهلتني، لم يترك لحظة دون أن ينفجر ضحكًا، أو غضبًا أو حبًّا.

كان يبهجنا بحكايته عن الممرضة التى عشقها وكانت تعمل فى مستشفى دولي، وتتكلم كل اللغات، قالت فى صباح يوم مبهج: " يا فهمي، إنت ملاكي فلا تتركني أبدًا، دعني أستمتع معك بالباقي من عمري "، لكنه رد بشموخ: " فى الحلال أعشقك، وأتوه فيكي وأدخل جنتك المملوءة بالأنوثة ".

واقفت " صفاء " بعد تأجيرها لشقة يقابلها فيها كل يوم وينام معها حتى الفجر، ويأتي إلينا مخمورًا سعيدًا تملأ عيونه الغبطة التى لم ننسها قط.

كان " فهمي " السائق الذي نعرفه جميعًا هو الذي توسط عند وكيل وزارة ليزوج ابنته لقهوجي بعد أن وقع أسير رائحة أنوثتها، ذهل وكيل الوزارة، وسأل خالي: " كيف جرؤت على هذا الطلب حتي لو كان القهوجي يحب ابنتي وهي تعشقه؟! " لكن فهمي نادي على الإنسان الرقيق داخله وحكى عن الحب الذي سيدفئ ابنته كل ليلة يعود فيها القهوجي إلى حجرتها التى ستشع رائحة تذهل الحي كله، واستدعى "أمنية" ابنة وكيل الوزارة المملوءة حنية وخجلاً، وسألها أمام أبيها: "هل القهوجي الذي ستنامين بجواره كل ليلة بعد زواجكما ويعاشرك هو الحلم الباقي لك؟ "استدارت أمنية وأشعت رائحة، جعلت وكيل الوزارة يترك الحجرة ويقول: " على بركة الله يا عم فهمي ".

لم ينسَ خالي أن يحكي وهو جالس عن الأميرة التى قابلها فى الإسكندرية وإلحاحها عليه ليعاشرها؛ لأنها اشتمت رائحة أنوثتها الطاغية فى عيونه، فتزوجها فى اليوم نفسه، وجلسا فى بهو الفندق يفطران، فما كان من عامل الفندق الذي شاهدهما إلا الضحك المتواصل لخروج الفل والياسمين من خدوده.

تجمع النزلاء حولهما ؛ ليشموا رائحة الورود التى ملأت باحة الفندق، لكن الجميع برر انفجار العامل وذهوله وصراخه بأعلى صوته في مديره ، حين طلب منه السكوت بأنه منزوع من حاسة الشم ، فكيف يمكن لإنسان الرضا بمصيره بعد شم هذه الرائحة ، وقتها احتضنت الأميرة خالى وتوقف الجميع عن الحركة والكلام وهم يشاهدون أجمل وجه لامرأة تشع أنوثة وهي تلتصق بذراع " فهمي " السائق.

لم ينس أن يحكي لنا عن المرأة التى استغاثت به وصرخت ليحميها، بعد سفر زوجها للبلاد الغريبة ليجمع الأموال ويشتري الملابس والأجهزة لمنزلها، انتهز اللصوص فرصة خروجها ليسرقوا المنزل المملوء بشقاء الزوج ، فطلب منها " فهمي " سرد الحكاية كلها منذ ولادتها وحتى طلبت استغاثته واستغرقت حكاية المرأة التى لم تبلغ الثلاثين، أربعة أشهر، كان يذهب إليها كل ليلة ليسمع جزءًا من الحكاية، وكانت المرأة التى أذهلته عيونها تحكي بنشوة غريبة.

تحتضنه كل ليلة وتظل ملتصقة به حتي أذان الفجر؛ لأن رائحة أنوثتها التى ملأت منزلها كانت تفقدها التوازن، فتتعرى كاملة وتعريه وتظل تتلوي تحته أكثر من عشر ساعات حتى ترى النور.

فيتحرك مذهولا برائحتها، ليلبس ملابسه ويخرج ليقابل الفجر، فتطلب منه المكوث ساعة أخرى ، فيعود ليضع قلبه ودمه فى عيونها المتفجرة ويواعدها لسماع باقي حكاية اللص والزوج المهاجر فى الليلة القادمة، وهى تواعده على انتظاره بأفخم الثياب التى أرسلها زوجها، وترك صدرها وفرجها برائحتهما حتى يعود.

" الدنيا بتمطر"

لماذا نحلم بالمطر، وهو ينزل على النافذة فيبللها، ويدخل النسيم البارد لأسِرتنا، وترتعش شفاهنا لنتأكد من تساقطه فى الشارع؟

لماذا نحلم بسماع صوته، وهو يدق الأرض، والهواء، ليأخذ التراب، ويلقيه فى الأرض، وتغتسل السماء؟

لماذا تصحو زوجتي من النوم، وتجري إلى البلكونة، وتفتحها وهي محلولة الشعر، ولا تهتم لندائي: رايحة فين، هتاخدي برد، فلا تلتفت إليّ، وتنطلق تحاول فتح الشيش، وتنهرني: "اسكت... اسكت... الدنيا بتمطر".

ماذا يحوي المطر، ليجعلها تصحو كل يوم حالمة بنزوله؟.

تتزعج ابنتي، وتناديها: "ماما.. يا ماما تعالي، تخاطبها متعاطفة مع حلمها، هتمطر، بس تعالى"، لكنها تخرج، تناجي السماء، وتعاتبها، لأن المطر لم ينزل، وتعود حزينة إلى المطبخ تعد الحليب والبيض فى صمت.

ما الذي يوجد بالمطر، كي يحزنها عدم نزوله؟.

كنت أخرج إلى البلكونة ، أنظر لشبابيك الجيران، لأشاهد أم هويد، أو أعاين مرور أحد أقاربنا بالشارع، لأطمئن على أن أحدًا لم يرها، فأحمد الله، وأعود إلى الحمام، أغتسل.

كانت زوجتي تفقد عقلها يومًا بعد يوم، فبعد أن كبر أبناؤها وأصبحت لهم حياتهم ، وانشغلت بعملي كل الوقت، "خلا البيت عليها"، وأصبحت لا تجد ما تفعله، سوى انتظارنا نحن والمطر.

" هنغير أسماءنا "

كيف يمكن الهروب من الأحكام التى صدرت بإدانتي؟ كيف يمكن أن أعمي عيون البوليس، والمخبرين حتى إذا شاهدونى فى الشارع لا يعرفونني، وحتي لو سألني أحدهم، عن عنوان منزلي وقلت: " لا أعرف "، يتركني باحثا عني بين الجموع الغفيرة.

على المقهي ستندهش الناس وتصرخ: "يا مخبرين، يا شرطة، من تبحثون عنه يقف أمامكم"، ينظرون شمالا ويمينا ولا يرونني.

كيف يمكن الهروب من أعين البوليس، بعد صدور حكم نهائي بحبسى عشر سنوات؟

بالأمس صرخوا أمام بابى: " افتح يا سُني، افتح متخافش، احنا عايزين نسألك سؤال، افتح".

هربت من شباك المنور، إلى السطح المقابل، وفتحت لهم أم حبيبة وقالت: "عايزين من جوزي إيه؟ " فلطمها الضابط، وأزاحها المخبرون والأمناء من طريقهم، ودخلوا حجرات الشقة يبحثون عني، قطعوا المرتبة الحيلة، وكسروا زجاج الشبابيك علني أكون خارجه.

عند خروجهم أفزعوا الناس فى الشقق المجاورة، وقالوا لزوجتي: " فيه حكم بعشر سنين على جوزك يا مرة لاشتراكه فى جريمة قتل الحلاق ".

لم أدخل باب القسم طوال عمرى إلا مرتين، واحدة عندما تشاجرت مع صاحب المنزل بسبب ماتور المياه ومرة ثانية حين جرح وجهى صاحب المقهي الذي أعمل فيه.

أراد أن يخصم أجر ثلاثة أيام ، لغيابى دون إذن ، رغم إن والدتي ماتت فى هذه الأيام التى تغيبت فيها ، وبدلا من أن يواسيني ، خصم أجري ، ففتحت رأسه بالشيشة ، وبعد تجمع الناس وحضور دورية الشرطة ، عاهدت نفسي بأن أمشي داخل الحيط حتي لو رش الناس على وجهى مية النار.

يا ناس ، هنسى إزاى إني قتلت ؟ أهو ده اللي أنا خايف منه ، هثبت إزاي أني فى حالى؟ ده أنا من ساعة ما اتولدت متخانقتش إلا مرتين ، وتصالحت فيهما ، وأصبحت أنا وصاحب المقهي وجاري الذي انفعلت عليه يومًا ما أصدقاء نسهر الليالي ، ونتزاور فى المناسبات.

كيف يمكن نسيانى قتل الحلاق؟ أنتم لا تعرفون قسم الشرطة ، فقد دخلته مرتين ، يفاجئك المخبرون بالشومة على رأسك لتعترف علي اي شئ ، شاهدتهم يعلقون "بوشة السباك" فى

السقف ، وينزلون بالكرابيج عليه ؛ ليعترف بسرقة إحدى المواشي ، كان ينزف من كل أجزاء جسمه ، ورغم ذلك قام الضابط ، وفكه من السقف وأجلسه على كرسي وطلب من المخبرين ربطه جيدًا، ليوصل الكهرباء بجسمه حتي اعترف بأنه سارق كل مواشي البلدة، على الرغم من أنه كان مهاجرًا إلى بلاد بعيدة عشر سنوات، وثبت ذلك بجواز سفره، لكن حظه العاثر أن هناك تشابهًا بين اسمه واسم اللص الذى يبحثون عنه، وعرفت بالصدفة بعد مقابلة زوجته منذ سنتين أنه مازال بالسجن.

أنتم لم تشعرون مثلي بلسعة السجائر، بعد إطفائها فى أجزاء مختلفة من جسمك، كان ذلك تسلية المخبرين بالقسم فى أوقات راحتهم، مخافش إزاي يا خلق إذا كنت متأكد أنى لست القاتل، إن مشهد قلع أظافر اليد والقدمين، ونفخك وتشريط وجهك، وشفتيك بالموسي، سوف يجبرنني على الاعتراف.

الشىء الوحيد الذي سيحميني منهم، هو أن أغير اسمي فبدلا من " سني المحجوب " سموني " طيب المحجوب ".

حرام عليكم دنا عمرى ما عملت حاجة غلط، آخرتها تتهموننى بالقتل، يا كفرة!!

طلبى محدد، أرجوكم نفذوه، والفلوس مش مشكلة، هاديلكم ألف جنيه، هبيع ذهب الولية، وهي موافقة، غيروا اسمي، واسم مراتي، واسم بناتي، أنتم لا تعرفون أن اسمى الآن هو " طيب" حتي لو رفضت ألسنتكم وقلوبكم نطقه، حتى لو أنكرتمونى فإننى لن أعود مرة أخرى "سنى".

"نظرة"

كل يوم تعلن البيوت حدادًا جديدًا، وينادي المنادي، فتلبس الدنيا السواد، ويخرج الحقد والغل من العيون، وتمتلئ القلوب بالدموع على الحرمان من الحياة، لم يستطع الموت أن يطارد الأطفال الذين كانوا يلعبون الاستغماية، ومع ذلك خافوا منه ، وانزوى كل منهم فى ركن بالحارة ليدخل الخوف بطيئا قلوبهم وهم يتساءلون: " لماذا يقيمون الحداد؟ "

على مدار العمر، يكبر الأطفال وينشغلون، لكن يظل السواد يملأ قلوبهم، تذكرت ذلك حين تناقشنا أنا وإخوتى على ميراثنا المشترك، لم أستوعب فكرة أخذ أي منهم درهمًا أو حجرًا فى أية حجرة أو قطعة قماش كان يرتديها أبي أو أمي.

جائني أبى من تربته، واستعطفني حتي لا أنظر لإخوتي بغل وطلب مني السماح والمغفرة، لكن قلبي كان يرفض محتجًا على الحرمان الذي ملأ بيوتهم.

لم تفارقني أيام حدادهم المتكررة، لم يفارقني منظر النساء الغارقة فى دموعهن؛ بسبب القسوة اللذين أطلقنها فى الفضاء ليغيثهن الله ، لكنه لم يسمعهن واليوم يأتيني ابي ويطلب مني السماح والغفران!

أتي أخي الغريب، بابنه إلى منزل العائلة الذي أقيم به، وتحسس بكلماته الرقيقه أخبارنا ومعيشتنا، ولمح من بعيد بأنه متعب، ويحتاج، ويفكر فى بيع جزءٍ من أرضه كي يعينه على المعايش، كانت عيون ابنه تشع بهجة، ويعلن لي ولأولادى أننا نملك كل شىء فى التركة، والماضى، لكننا محرومون من السعادة، وحزانى، صرخت دون أن أدرى فى ابنه قائلاً: " وبعدين بقى... اقعد ياض.. اتهد شوية ".

المزعج فى الأمر أن أخى لمح نظراتى القاسية، فتململ وشخط فى ابنه قائلاً: " معلش محصلش حاجة، هو واد شقى، بس قلبه طيب ".

بغباوتى نظرت إليه نظرة أخافته، وقلت: " عايزين نفضها بقى يا نصر، مش كل يوم ظروفكم تعبانة، وعايزين تبيعوا الأرض، أرض إيه يا خوى؟! هو أبوك لو كان عايش كنتو فكرتوا تبيعوا؟ محدش هيجى ناحية حاجة وأنا عايش ".

فنظر إلىَّ بحنية، وقال: " أنا مش مشكلة يا خويا ، ظروفى مرتاحة، لكن إخواتنا البنات محتاجين حقهم ".

لم أتحمل أكثر من ذلك، فانفجرت فيه: "البنات مش هتورث فى الأرض، هو أبوك وأعمامك ورثوا البنات؟ ده جدك يا راجل حرم أخته دخول البيت، حين تجرأت وطلبت حقها، وبعدين الأرض والزرع شقايا أنا وعيالى، لن أعطيهم متر واحد، أنا فاتح البيت لهم، وخيرى عليكم كلكم".

شخرت وسببت الدين، وهددته لو اتكلمتوا فى الورث تانى هتبقى قطيعة ما بينا، وقلت بصوت مرتفع: " لا انتوا أخواتى ولا أعرفكم ".

نظرت ناحية ابنه واستكملت: " يابنى اسكت شوية، ولا أنتم عايزين تموتونى أنت وأبوك؟! " بحلقت فى عيون أخى بنظرة لم أكن أتوقع أن تكون بكل هذا الشر، ففهم إشارتى واستأذن معتذرًا، وحمدت الله أنه غار فى ستين داهية.

"الاعتذار"

كيف تركته حزينًا وحيدًا بجوار حوض السمك؟ كان ينظر إلىَّ بدهشة، لم يكن يتصور أنى سأتركه أبدًا، لكنى كنت أقسى مما تخيل، وانطلقت بعيدًا.

لم يكن يتصور نفسه بهذا الجحود، فحينما نهره بهدوء، تصور أنه يقلل من قيمته وجهوده، أراد فجأة أن يقول ولو لمرة واحدة فى حياته: " إنه يستطيع أن يحيا دون فضله "، فما كان منك إلا امتطاء جوادك ودون أن تنظر إلى الخلف، انطلقت بعيدًا فى طريق معاكس.

أما هو، فظل يتأملك، وأنت تطير، غير مصدق أنك تستطيع التحليق بعيدًا عنه، كيف ملأك الحب وأنت تغادره بالرغم من كل هذه القسوة؟!

ثلاثة مشاهد مازالت حائرة، وتطير معك من قرية إلى قرية، ولا تستطيع نسيانها، هل تتذكر اللقطة الأولى؟ حين تركته وحيدًا بجوار حوض الترومبة اللذين حلمتما ببنائهما معًا، كان يرغب فى أن يسقى جواميسه من هذا الحوض، لكنك حرمته بغبائك وأحلامك المستحيلة، برفضك نزول الماء للحوض فماتت مواشيه، وهو مندهش من جبروتك، وفى اللحظة الأخيرة هناك، رأيته بلحيته البيضاء، وجسمه النحيف، وهو يبحث عن إجابة وتبرير لظلمك.

واللقطة الثانية، للنساء الحزانى، بملابسهن السوداء، وهن يخرجن من شرايينهن الحب الذى قدمنه لك دون مقابل، بل وبفخر، كنَّ يعشن بأمان فى هوائك، لكنك فجأة اختفيت، وبحثن عن الأوكسجين كى يستمررن، فى الحجرة المظلمة التى تركتهن فيها.

نزفت دماؤهن وهن يمتن، منذهلات من فجرك، وخداعك، وأنت تطير بعيدًا، وفى اللحظة الأخيرة، كنت تغنى لبطولتهن، وتتوقع خروجهن سالمات كى يكافئنك، رغم أنك حرمتهن التنفس.

أما اللقطة الثالثة، الحائرة، حتى اليوم بين قلبك وجبروتك، بين حريتك وحبسك، بين الهواء الطلق فى الشوارع، وهواء السجن المحبوس، فهى لمشهد الابن، الذى ظللت طوال عمرك تضحى من أجله، وأتى اليوم الذى وجب عليك أن تتركه ليحيا بمفرده.

هل تتذكر تلك اللحظة التى غادر فيها المنزل، وهاجر لبلاد أخرى غريبة لم يعد منها قط؟

كان يرغب فى أن ينام إلى جوارك، ولو لليلة واحدة؛ لينعم بالأمان، لكنك نهرته وقلت فى مشهد الوداع: " كفاية كده ... هيحصل هيحصل... فضها بقى ".

ذهل الابن، وتساءل: " كيف حرمك الله نعمة الأبوة؟ "

لكنك جرحته، وغرست نظرتك القاسية فى قلبه، لتزرع الغل باسم الصلابة.

على رغم أنى غادرت المشاهد الثلاثة منذ عشر سنوات، فإنها مازالت تفاجئنى كل يوم، بالحيرة التى تملأ هواء الحجرات التى أدخلها.

اللحظة الوحيدة التى تفارقك فيها تلك المشاهد، هى حينما تكون وحدك فى الشارع، تشم هواء النهر، وقتها تعلم أنك فى طريقك الصحيح فتنطلق فوق جوادك الأعمى، لتتخطى الآبار، وتقتحم السدود، والمشاهد الثلاثة تنظر إليك بدهشة وذهول، وتتساءل فى صمت: " كيف استطاع أن يقسو لهذه الدرجة على نفسه؟ " اليوم، ترغب فى تعويضهم، كم مرة حاولت تعويض الحلم وفشلت؟ كم مرة حاولت أن تسمو بقبولك الزائف وسماحتك الكاذبة على كل الخلافات وانهرت؟ كم مرة وأنت هنا تبحث عن تفسير لقسوتك؟

ثلاثة مشاهد أحاول تخطيها، ونزعها من قلبي، لأعبر للقرى الجديدة دون أن تعيش داخلى؛ لأنها مشاهد كريهة، لكنى لا أستطيع ، فلتصتق بى، على رغم أننى طردتها.

فلماذا تأتى معى فى كل رحلاتى؟ هل يمكن تركها ولو لمرة واحدة، وأنا راحل إلى قريتى الجديدة؟

هل أنجح لأخدع نفسى بالطيران بعيدًا عنها؟ أنت تعلم اليوم أنه يمكنك الانطلاق، لكنك ستتركها بمكان غير آمن، هذا المكان الذى ستفجره قريبًا، حتى إذا حاول أحد تذكر قسوتك لا يستطيع، لانك تتمنى أن تنال حبهم، وودهم، وقبولهم، تامل تعويضهم دون حزن، كى يغفروا، ويسمحوا لأنفسهم بالعيش بعيدًا عنك ، أو معك ، متقبلين وجودك، واختلافك، فهل تستطيع بعد الاعتراف أن تعتذر؟ كى يستطيعوا أن يقذفوا، أو يفجروا المشاهد الثلاثة فى المحاجر والبيارات والخرابات، لدرجة أنك لو حاولت أن تتعرف عليها مرة ثانية لن تستطيع لأنها لن تكون هناك.

هل يمكن أن تتحمل مرة أخرى أن يخدعوا أنفسهم حتى يقبلو وجودك، وينسوا الزمان، والمكان، والأشخاص الذين يذكروهم بك، ويتذكروا فقط ضحكتك الفاجرة التى تعينهم على الحياة. هل يكفى الاعتذار كى يسامحوك، بعد أن حرمتهم بهجة الحياة؟!

"الضياع"

أتذكر آخر مرة رأيته، منذ ثلاث سنوات، كان يتقدم الجمهور، ويخطب فيهم، ويسألهم: " ما الذى يمكن أن نفعله فى وجه الظلم والجبروت سوى الصراخ؟ " كان يتكلم بعروقه ويديه وأذنيه وشعره، لتهتز الحوائط المسدودة والأمنيات المستحيلة ويقضى على الخوف بداخلنا، كنا نحس أن صانعى القيود سينهارون ويفتحون السجون، ويرحلون بلا رجعة.

كان يقول: " لن نتركهم يرحلون دون اهانتهم، لن نتركهم دون أن يبصق كل واحد فينا علي وجوههم، وسوف نقرر يومها ما الذى يمكنه تعويضنا عن سنوات القهر ".

كانت الحوائط وسط الميدان تتحرك ، وعربات الشرطة وضباط أمن الدولة يرتعشون أثناء خطابه بصوت أذهلنا جميعًا: " دعونى أشرح لكم كذبهم وخوفهم منكم، دعونى أفجر نفسى فى هؤلاء المجرمين، الذين حرمونا مشاعرنا المتدفقة، وحولونا لآلات صماء، دون أحاسيس، دعونى أشر لكم بقلبى على الأسى الذى تحملته الأم، والزوجة، والابنة، والأب، طوال السنين الماضية، وضحوا بحياتهم، كى نهدم هذه الجدران".

كان يبهرنا بنبرته الصادقة، ودون أن ندرى اختفى مرة واحدة بشوارع وحوارى المدينة المظلمة، لكنه دائما، كان أمامى يضىء الطريق بنظراته، وكلماته الصادقة عن نبض القلب المنير داخلنا.

بعد مرور عدة سنوات، قابلته ، وقف أمامى لأتلمس يديه، وأحضنه ، صديقى أنت هنا، أنت مازلت هنا؟

اندهش من حميمتى، نظر إلىَّ باستياء، كأنه يسألنى: " لماذا تفعل كل ذلك؟ " قلت: " أنت الجسور الذى قذفت كلماتك الجدران الصامتة لتتهدم، أنت الذى أضأت لنا الطريق، ألا تتذكر؟ " قاطعنى قائلاً: " يا عم إنت لسه فاكر؟ اسألنى اليوم من أنا، انا اشتغلت فى برامج الكومبيوتر والفضائيات، وأتطلع لامتلاك شقة واسعة، أصنع الآن ألاعيب وعجائب بعملى، وأسلى الناس فى الصباح والمساء، أرجوك لا تذكّرنى بهذه الأيام السوداء، كانت فترة ومرت، أحلام إيه وجدران وأمن إيه يا راجل يا طيب؟ "

نظر إلىّ حين تغيرت ملامحى وقال فى تحدٍّ: " ورد وفراشات وجنة مين يابنى؟ " قهقه بصوت مرتفع حين حاولت تذكيره بنشيد المقاومة والكفاح الذى ألفه، ورددناه وراءه، بأعلى صوتنا دون أن ندرى، حاولت تذكيره بمشهد الضباط الهاربين منا؛ حتى لا نفجر ضعفهم.

قلت بنبرة المؤمن: " كنا أقوياء بصوتك الرنان، الذى ألغى الفوارق وأزال الخوف، كان صوتك أقوى مما توقعنا، وسمعك العالم كله، وأنت تصرخ وتعلن آدميتنا، وطريقة محاكمتهم، بعد انهيار الأسوار "، اندهش وقهقه مرة ثانية قائلاً: " يا عم فوارق إيه، أنت بتتكلم عن مين؟ "

حاولت تذكيره بملامح الجمهور المنفعلة، الذى أسرها بهالته بعد إيمانها بتحطيم الجدران، والفوز بالحرية، لكنه نظر إلىَّ فى صمت وتركنى.

"الحسرة"

أدَّعى أننى أعرفهم جميعًا بنظرة واحدة من عيونى، هؤلاء البشر الذين تعودوا على الاستجداء والانبطاح، ومع ذلك فاق ما قام به أحدهم توقعاتى.

كنت أتصور أن الأفاق سيظل طوال عمره يستجدى النعمة من الآخرين، لكنه قرر ترك عمله عندى وفتح دكانه المستقل، ومن يومها تغيرت كل المعايير المتعلقة بمفهوم اللصوص والنصابين.

أعود اليوم لأتساءل: " كيف تم ذلك؟ أكنت أعمى لا أرى؟ وكيف أدعى بعد ذلك أننى أفهمهم جميعًا بنظرة من عيونى؟ " أعود اليوم لأسأل نفسى: " هل تتحسر على إخلاصك وفهمك القاصر، أم على الزمن الذى أعطى للأفاقين أمثال صاحب الدكانة الجديد أن ينتشر وينجح؟ "

علىّ فهم العالم الجديد، بعد تغير المعايير القديمة التى شربناها من كيعننا.

اليوم، يجب تغيير مفهومى عن الكذب، والنفاق والزيف، والحب، وعلى أن أبدأ رحلتى لاكتشاف طرق الأفاقين أصحاب الدكاكين الجديدة، المتاجرين بالأحلام والأمل والنهوض.

كيف استطاعوا أن يغيروا الحاضر، لنصدق مؤشراتهم المختلة؟ " المال هو أساس الحب "هل كانت هذه الحكمة الجديدة القديمة تحتاج إلى معايير مختلفة؟ وإذا لم يكن العالم قد تغير، فكيف استطاع هذا الأفاق أن يعبر كل هذه المحيطات، ليغرق فى النهاية فى بئر الثعابين؟ كيف استطاع أن يتسلق كل هذه الجدران، ليصبح محاميًا، أو لصًّا، أو تاجرًا، أو قوادًا مشهورًا، يحترمه الجميع؟

كيف استطاع أن يعطينا المحاضرات فى الفضائيات دون اهتزاز رمشه؟ هل كان يصدق نفسه، أم أنه تغير؟ أم أننى بت لا أفهم عالمهم الجديد؟ أعود لأسأل نفسى عن سر نجاحه، لأؤكد أنه ما كان يمكنه النجاح، إلا إذا كنا قد وصل إلى درجة من الانهيار لم أكن أتخيلها.

فى النهاية خدعنى، وفاق ما قام به كل توقعاتى.

فبعد أن رميتُ بحِجْرِهِ دفعة واحدة؛ الحب والمال، والنساء، والأمل ، فاجأنى بأخذ كل شىء.

اليوم لا ألوم إلا نفسى لأن مؤشراتى خاننتى ولم أعد أفهمهم جميعًا بنظرة من عيونى.

خدعت نفسك بأنك يمكنك تغيير الكون بنظرة من عيونك العسلية، فانتهيت بأنك لا تفهم لغتهم وتحجرت الأشجار وذبلت البيوت وجفت الأحاسيس.

لم يكن هناك أى وتر يمكن عزف لحني عليه، لم يكن هناك فى الكون أية موسيقا، أو ألوان يمكن أن تعنينى على رؤية الحقيقة.

بحثت عنه وسط الدكاكين القديمة والجديدة، كان أصحابها يندهشون ويسخرون من سؤالى، كثيرون منهم لم يكونوا يعرفوننى، ظللت فى هذه السوق لأكثر من عشرين عامًا أبتاع العطور والألوان والبهجة والحب، وفى نهاية الممر وقفت وحيدًا أستجدى الشكر.

كيف استطاع الأفاق الذى ظل طوال عمره يستجدى النعمة، أن يتمرد ويسرقنى ويهرب بعد استيلائه على الخيوط الرقيقة التى كانت تربطنى بالسوق والشارع ودكانى القديم؟!

كيف استطاع أن يجبرنى فى النهاية على التهليل وسط المارة شارحًا مأساتى وخداعى كى يتعرفوا علىّ؟ كيف استطاع؟ أعود اليوم وأتساءل: "هل كنت بالسوق، هل جمعت الأموال والسلطة والمشاعر، وهل كان هناك أفاق أخذ كل شىء وهرب؟ لا لم يكن هناك شىء من كل ذلك، أنت تخدع نفسك.

"أين الباب؟"

فى الماضى كان الأمن السرى يطاردنا عند ترتيب احتجاج أو عقد اجتماع، ومازال مشهد المخبر الذى يقف على ناصية الشارع يراقب تحركاتنا ويرصد تجمعنا ونظراتنا وانطباعتنا يأتينى أينما سرت، أشاهده حين ينظر إلى جارى، وأنا خارج من شقتى، وهو يفتح باب شقته، أرمى عليه السلام ، فيرد بغمغمة لا أفهمها.

حين أهرب منه وأجلس على المقهى أشاهده يبحلق فى الجالسين ثم ينظر إلىّ، فأترك المقهى وأسير فى الشارع، أجده عند ناصية الشارع يتفقد السائرين ويضع إحدى الجرائد تحت إبطيه ، ويوهمنا بأنه يقرأ صفحات الفن والرياضة.

كان الناس فى المنطقة التى أسكن بها ينظرون إلى المخبر الذى يقدم تقاريره للجهات الأمنية، باعتباره خائنًا لأهله، وعلى رغم احترامهم الظاهرى له فإنهم كانوا يرفضون اندماجه معهم حتى لا يشي بهم إذا أخطأوا، أو ينقل أسرارهم إلى تقاريره السرية.

كنا نتساءل: " لماذا يفعل المخبر ذلك؟ هل هو مريض، هل يتحمل نظرات الأهل المستاءة والحزينة منه وعليه بدافع المال، أم أن التلصص يجرى فى دمه ، فيجمع المعلومات كل يوم عن كل شخص فى الحارة ويرفعها للأجهزة مجانا؟ كنا نتخيله كل ليلة بعد أن ينام الجميع، يجلس مفزوعًا بعد طيران النوم من عينيه، يمسك قلمه، ويبدأ فى كتابة الأحداث التى مرت بالحارة ودور كل واحد فينا.

فى الماضى، كان المخبر شيئًا قبيحًا، يدمن المخدرات وتخونه زوجته بعد طرده من منزل العائلة ، فيستسهل المهمة القذرة، فى التجسس ومعرفة أسرار الناس ليبيعها للأمن ويتمكن من إحكام قبضته على الحارة ، كان بعض الشباب يرغبون فى قتله، لكننا كنا نخاف الأجهزة.

كنا نفكر فى تفادي تحركاته خلفنا، فى الحوارى والمصانع والمقرات المختلفة وعلى المقاهى وهو يستمتع بعمله فى كتابة انطباعاته عن كفاحنا، فنهرب من عيونه لنعيش حياتنا بحرية دون ضغوط، أو لنستكمل بناء تنظيمنا، وسيلتنا، فى تغير العالم والبلد والحارة، ونتساءل: " هل يمكننا أن ننعم فى النهاية بحياة دون مخبرين؟

يطير الأمل من فوقنا كل يوم ويدفعنا لتجاوزه ، رغم جبروته وكاميراته التى يضعها فى كل ركن من أركان حياتنا، تعلو مشاعرنا فوق سماء الحارة لتشكل سحابة الدفء فى أيام الشتاء،

والظل فى الصيف ، وتمنع كاميراته من المراقبة، كنا نثق بقدرتنا على العبور للمدن المبهجة، بطرق السحرية تخدع المخبر.

كان العالم الذى نحلم به يقترب كل يوم، نراه مفروشًا بالزمرد والورود والشموع، والنساء المزينة بالترتر، ويمتلئ الطريق السحرى لعالمنا بألوانً منيره، ومع ذلك حين عبرنا بوابة هذا العالم السحرى غرقنا فى مكان فسيح ممتلئ ببشر اغراب، وكنت وحدى فى هذا العالم الجديد المتسائل عن مكان المخبر.

كانت النساء المختلفات من كل الجنسيات مرتدياتٍ ملابسهن الخليعة، ينادين علىّ كى أقترب، وأندمج فى العالم السحرى الذى تنطفئ أنواره فجأة ثم تضىء.

رغم همس الظلام المؤقت، فإن نبض الأنوار المضاءة بأقصى سرعة فجأة فى كل اتجاه، يدهش الجميع وتتفتح العيون والأفواه مفتونة بالقلب الخالى من المشاعر والأجواء المحيرة.

ومع ذلك كنت أبحث عنه مذعورًا حتى لا يشاهدنى سعيدًا، فيشي بيّ ويكتب فيَّ تقريره إذا رآنى مبتهجًا: " لقد وجدت المذكور (ص) بين الجمع الكبير وقد خلع نظارته ويعبث مع النساء ويضحك عن آخره "، سوف يندهش رئيسه، وهو يصف صوت ضحكتى الخليعة، فيأمر الجند بإيقافى، والضغط على رقبتى وخصيتى، ليسرقوا بهجتي.

تركت الجمع وبحثت عنه حتى أتفاداه، وفجأة نهرتنى امرأة كانت تسير بجوارى، وسألتنى: " كيف عبرت إلى عالمنا السحرى رغم كل هذا الخوف؟! " كانت تتكلم كأنها تعرفنى وأنا لم أكن أعرفها، كنت أحس من نبرة صوتها وعتابها وانبهارها بضحكتى أنها صديقتى.

كانت الإضاءة خافتة والحيوانات ملأت الطريق، ومنظر النساء الثعابين اللاتى ينظرن من شرفات منازلهن فى الطرق السحرية عجيبًا، كن يضعن كحلاً غامقًا مخيفًا وكانت أسنانهن زرقاء لامعة، وشاهدنا الحيات تعاشر الرجال منزوعى القلوب والعيون، والشىء المذهل أن الرجال الذين يعاشرونهم كانوا يعتقدون أن الحيات هن أجمل نساء الأرض!

ماذا كانوا يتعاطون ليتصوروا تلك الأوهام؟ هل تتذكر الشراب الذى تعاطيته عند مدخل الطريق السحرى؟ كان بنيًا فاتحًا ومرًا واستطعمته، هل كان شرطًا أن تشرب الكأس دفعة واحدة لاجتياز اختبار قوة تحملك كمراقب؟ هل تتذكر العملية التى أجريت لنا حين وصلنا إلى منتصف

الطريق؟ كنا مجموعة متمردين وحيارى بين الموت والحياة، بين الرجوع والاستمرار فى الطريق، بين عشقنا لأهالينا أو مراقبة تحركاتهم ، لنقدمها للأجهزة المختلفة لتقييم آدائنا.

حين لمحوا ترددك، فاجأوك بوضعك فى حجرة العمليات المجهزة، وألقوا بك فى هدوء على السرير، اجتمعت حولك اللجنة التى قررت نزع قلبك ومشاعرك بمشرط التحرر، وفوجئت بالنتيجة المذهلة ، أكانت جراحة مؤلمة أم لم يعد لديك قلب تشعر به أو تحس؟

اليوم أشاهدك فى الفيلم الذى تمت إذاعته على الهواء، كنت تحن إلينا، فتبحث عنا فى الصورة، لكن الطريق السحرى المملوء بالأنوار المبهجة أفقدك الذاكرة ، هل تتذكر حين جلست وحيدًا على المحطات الغبية التى أقيمت قرب نهاية الطريق والتى نزعوا من هوائها ولوحاتها وكراسيها وطعامها كل المشاعر؟

كان الطعام ينزل دون رائحة، دون لون، دون طعم، لكنهم أوهموك أنه أفخم الأطعمة لأن الفندق الذى يقدمه حائز على جائزة الأوسكار فى فنون الأدب والطعام.

كانت الموسيقا المعزوفة دون نغم، واللوحات المعلقة دون خطوط او فراغات، والهواء دون نسمة عليل، ومع ذلك كان الجميع مندمجين فى الرقصة، لنجاحهم تجاوز الطريق الوهمى، يبهتجون ليؤكد غباءك، وأنت تنظر إلى عيونهم الكاذبة، وهم يتداولون لاختيار الاتجاه الأخير فى الطريق السحرى.

بعضهم كان يشير إلى بوابة النساء، والآخر على بوابة المال، أما الباقون فكانوا حيارى مثلى ، بين الزهور التى حرموا قلبها المياه، والعيون التى أخذوا منها نعمة النظر، وهناك من ترفق بى وساءلني: "كيف استطعت تجاوز كل هذه الطرق وحيدًا حائرًا؟ ويستغرب كيف لا أستطيع الدخول إلى بوابة الجنة التى صنعوها لننعم بالمجد ؟ "

اندهشت من إحساسهم الميت، رغم أنهم شاهدوا مثلى النساء الثعابين اللائى كنَّ ينظرن إلينا من الشرفات طوال الرحلة، وصراخهن فينا بشكل جماعى بألا نستكمل الطريق كى لا يسرقون مشاعرنا، ونتحول إلى دجاج مثل الرجال الثعابين المحرومين من الحب والرائحة والأمل.

كنت أتساءل وقتها: " لماذا تساندنا النساء الثعابين؟ كيف يخفنَ علينا وينصحننا كى لا نستكمل رحلتنا بالممر؟ رغم ضياعهن بين المنازل الشاهقة والشقق النظيفة التى يمتلئ بها العالم السحرى.

كن يصرخن فينا بحب: " سيفضى بكم الطريق إلى عالم ميت مبنى على أحدث طراز، ويلبس فيه الناس أفخم الثياب والألوان، عالم نظيف مزروع بأشجار النخيل الصناعية، وتمتلئ شوارعه ببقايا الزمن القديم ".

كنَّ يذكرننا نحن الحيارى بمنظر المخبر العتيق الذى يملك العصا الصغيرة، ويضعها تحت إبطه، ويتلفت يمينًا ويسارًا، وهو يشرب سيجارته، حى لا يلسعه العقب فى يديه، فيلقيه على الأرض ويدوسه بقدميه، و فى اللحظة نفسها نختفى عن الأنظار دون أن يرانا، ليحرمنا بناء جنة الأحلام، كن يؤكدن أن العالم السحرى المزيف تمتلئ شوارعه بتماثيل لرجال هزمتهم الأمطار والحب، وقد نحتها المجرمون حتى يذكرونا ببكارة أرواحنا.

فجأة نتذكر الزمن الماضى الذى تركناه فى أول الطريق، لنشم رائحة الحارة، وطعم الأكل فى منزل الأمهات الحنونات ، نتذكر نسمة الحب التى تأتينا من عيون الحبيبة.

حين نظرت إلى الجمع الغفير وجدتهم يحلمون بالعودة إلى ديارهم ورفض أبوابهم، وجنتهم، لكننى تيقنت أنه من المستحيل أن يعودوا لأنهم فقدوا ذاكرتهم.

أتذكر اليوم بعد وصولى عند نهاية الباب السحرى الأخير، نظرت إلى الأبواب الثلاثة التى رسمها الملوك وكتبوا على كل منها وصف الحياة الجديدة، كان الجمع الذى شاركنى رحلة الممر يندهش أنه استطاع الوصول إلى نهاية الرحلة، كان فى تقديرهم أنهم فى قمة النجاح، حتى ولو كانت ذاكرتهم قد فقدت كل الأزمنة والأماكن والحب.

لكن الماضى ظهر فجأة ، قبل خطوة العبور إلى البوابة الاخيرة، وسالني: "ستتركنى وتختار الحياة الجديدة أم تعود إلى وطنك وناسك وأهلك؟ " وقبل أن أجيبه، فوجئت بالمدربة التى أخذتنى من يدى لتقودنى وتعلمنى للمرة الأخيرة الطرق المنطقية المتسقة مع طبيعة الكائنات حتى أختار طريقهم بهدوء.

كنت الوحيد الذى سألتها: "ماذا تخفى تلك الأبواب؟ هل بها حب ومشاعر أم وأشجار ناشفة؟ هل خلف الأبواب حبيبتى التى أحلم بحضن دافئ بين قلبها؟ كى تسكننى وتمنع عنى البرد والموات، أم تحتوى على الغل والحقد الموروث فينا؟ "

فجأة أغلقت الأبواب التى رسموها لنا وقادتنا إليها مدربتهم، فقلت: " طظ في المستقبل وأبوابكم، لن أعود إلى الماضى البعيد، ولن أدخل وراءكم، ولن أختار طرقكم السحرية، هناك باب

آخر أحسه ويتغلل بداخلى، إنه الباب المفتوح على عيون أمى، أغمضت عينى ورأيته مفتوح بقلبى، إنه باب مستقبلنا نحن، والمفتوح طوال الوقت لنا، يجاورنا فى عقلنا، نتدفأ به فى البرد، ونتنسم به فى الصيف، ليس له مدخل محدد، يحلق فوقنا، ويدفعنا ببهجته إلى الدخول.

"صفعة الوهم"

كان وجهها ينضح بالأمل في إصلاح كل شيء، وهو بغبائه كان يقاوم براءتها، ويعاونه الطقس على التكرار الممل لحياة يجب ألا تعاش، فانفجرت غضبًا واستدارت مرة واحدة، ورفعت يدها لتصفعه بعرض الطريق على وجهه دون أن يهتز رمش عينها.

ذهل المارة، وتوقفوا لحظة عن السير، نظروا إليه، وتخيلوا للحظة أصل الحكاية، وكيف آذاها؟ وكيف تحدته؟ هل خانها؟ هل سرق عمرها؟ ووقفتُ أنا الآخر مندهشًا متسائلاً، عن كم الغضب الذى ملأ وجهها، وانطلق من قدميها إلى يديها، لتمسك بحذائها وتلقى به فى وجهى، وتبصق علىَّ وعلى المذهولين حولى، وتسير بعرض الطريق، لتعلن أنها أقوى منا جميعًا، وتفضح انكسارهم وحسر حرمانهم التمتع بالدفء فى حضن من نعشق بالبيت المملوء حب.

اللحظة التى سبقت الصفعة فى الشارع كانت عادية، السيارات تمر من أمامهم وهم يتشاجرون ويتعاتبون بهدوء عن السبب الذى جعل ضفاف الحياة تشق قلبه.

وقف دقائق مذهولاً، قبل أن يختفى فى أقرب حارة، ونظر حوله، فوجد العيون ترمقه وتستغرب، وتتساءل عن الحكاية، تحرك يمينًا وراءها والدنيا ظلت ساكنة، السيارات توقفت، والأشجار امتنعت عن هز أوراقها، الكون صامت، الذهول استمر حتى مر إلى الشارع الجانبى واختفى وسط الزحام .

سأل نفسه: " أين هى الآن ؟ " كانت تمشى بجوارى منذ دقائق، تحكى عن البطاطس التى لن نأكلها لأنها تمتلئ بجهود الفلاحين النبيلة فى الشتاء، وتتساءل فى أمل: " كيف يمكن أن نسلق هذه الجهود، ونأكلها بعد غليها فى المياه؟ "

قبل لحظات كانت تتكلم، وتسكت، وتعانقنى، وتدمع عينها لأنها رأت أخاها المسافر حزينًا على ترك أبنائه وزوجته حيارى ، وتندهش من صمتى، كيف تركها دون مشاركتها الدموع؟ يعلم أن صراعاتها الخفية مع الدنيا تمشى عكس الاتجاه، فكلما رغب فى السير توقفت، وحين قرر أن يفقدها التوازن اختل، كان يقاوم نفسه حتى لا يموت.

لماذا قرر التوقف فجأة عن النبض أمامها، وهى منتشية سعيدة بدفء أصابعه؟ لماذا اغتال البهجة التى نزفتها على الطريق المجاور ليسلبها الامل؟

كانت تحكى بفرح عن حضورها خطوبة منصور، نجار المسلح جارهم وبعد مباركتها العروسين تركتهما جاءت لتقابله، فقاوم دمه البارد ريق الحياة الذى حاولت وضعه بلسانه.

قالت: " سامية عروسة منصور جامعية، وهو نجار مسلح، ومع ذلك رأيت فى عيونهما قبل تركهما، بهجة الدنيا، ومنصور الذى لم يستحم تفوح منه رائحة عطر البنفسج لدخوله دنيتها ".

كانت تحكى بفرح، وهو يقاوم بنظراته الشاردة ويقول: " قبل حضورى كانوا هناك يطالبوننى بالمكوث فى الممر، ورغم عدم قدرتى، كانوا يدخلون سيوفهم فى قلبى، ليبحثوا عنك، خفت أن يجدوك، فهربتك إلى شرايينى، ولم يعثروا عليك، ولكن بعد أن تركونى وهم منزعجون من قرارى بالخروج، بحثت عنك فلم أجدك ، أين اختفيتي؟ "

كنت أعلم أنى أخطأت؛ لأنى تركتهم يدخلون روحى، وعاهدت نفسى منذ وجودك ألا يشاركك أحد بقلبى، لكنهم خدعونى وقالوا: " لن نؤذيها لا تخف "، وعلمونى بتمارينهم كيفية التعايش مع الصور والظلال، وغنو لي اغنية علي الممر: " علشان نقدر نعيش لازم هنكدب شوية، هنكدب، لحد ما الكدب يبقى شيء عادى"، كانوا يحاولون تطهيرى وقتلك؛ لأنك الوحيدة التى كنت تعوقينهم عن نزع الأمل من روحي، خفت عليكِ وأفرغت قلبى من كل المشاعر، وهربتك داخل شريانى لكنهم جرحونى وتركونى كالجيفة، وبحثت عنكِ فلم أجدك، أين كنتي؟

استطاع بحكاياته الغبية أن يذهلها، واستطاع أن يسرق بهجتها، فاستدارت وصفعته، وتحركت بكل القوة، والجميع ينظر ناحيتها منكسرًا، يذهلهم وجه امرأة يملك كل هذا الرفض.

بعد أن سار ساعتين وحيدًا، قرر أن يستريح من الزحام بأحد المقاهى، ليسترجع اللحظة التى سبقت الصفعة.

منذ ساعة، كانت تحكى بفرح عن النور الذى شاهدته وسط الليل، وكانت العصافير تملأ الحجرة، وصوت اليمام المنتشر على الشبابيك ينادى ويقول: " يارب يا جميل، حافظ على حبيبى حتى أراه غدًا "، ولما دخلت أمها العجوز بالحلم وجدتها مبتهجة، وحمدت الله على أن ابنتها أجمل البنات سوف ترى حبيبها غدًا.

كانت تحكى عن أرغفة الخبز الساخنة، التى تناولتها مع ابن أختها وهو ذاهب لمدرسته، وهى تعلمه تلاوة أمنية قبل خروجه من باب الشقة، أمنية سوف تدهش العالم وتسعدهم ولا تتركه إلا بعد يقينها بأنه تمنى الحب.

كانت تحكى، وهو متبلد الإحساس، يطالبها بالسكوت، كى يحكى لها عن عيونهم الجاحدة التى تدربه على الطرق المنطقية للسرقة، وبناء المدن الوهمية؛ ليسكنها الفقراء وينعموا بالحقوق الكاملة، وبعد أن ينتهى من التخيل المقترح للحلم، يقدم تقريرًا وهميًا عن سعادة الفقراء، بعد أن يسكنوا المدن، لكنهم أكدوا أن هذا العالم الوهمى لن يصدقه أحد إلا هم، وعليه من اليوم أن يتجاهل أهله وأصدقاءه؛ لأنهم يحقدون عليه ويرفضون التغيير، والشيء المذهل أنه كان يجب عليه أن يصدق كل هذا الوهم كي ينجح في الاختبار، كان يحكى وهى تحاول أن تعيده إلى الحياة، ليشم الهواء ويشرب مياه النيل لكنه بغباوته كان يقاومها، فاستدارت فى غضب وصفعته واختفت.

"الخوف من الطيران"

كنت أتدفأ بأقراص الروث، حينما لمحته طائرًا فوقى، يحاول الاقتراب من النهر، نظرت إلى عيونه اللامعة فغرقت فى بياضها.

المطر يهطل على الأرض، فرميت على ركية النار المزيد من الأخشاب وأقراص الروث، والطائر يبحلق ويدعونى لاحدق إلى عيونه يقول: "أعشق المساحة المحيطة بك، والنسيم اللذين يفوح منها " ويسألنى: "هل يمكننى الجلوس بجوارك للحظة؟ "لم أرد عليه لأن المطر كان ينهمر، والجاموسة تنادينى لأدخلها فى الزريبة المملوءة بالأغنام والبط.

خضت بالمياه، وملأ الطين وبقايا البرسيم اقدامى، وحللت قيد الجاموسة، لتجرى فى المطر، وتدخل مكانها على الطوايل، حينما خرجت بحثت عنه، نظرت إلى السماء المملوءة بالغيوم، وجدته بين أعراف شجرة الصفصاف، وأجنحته مفرودة لتغطينى وتحمينى.

قلت: "من أنت؟ "هل أرسلك عمى معروف" حكيم قريتنا" الذى شتمنى بعد كسر قلته ؟ واشترى يومها إبريقًا جديدًا، مازال ينقعه كى يغسله من بقايا الفخار والجير؟ "

ضحك عن آخره، وبحلق فى عينى قائلاً: " اريد الجلوس إلى جوارك والتدفئة بأقراص الروث، وشرب الشاى" قلت: " هل أرسلك سليم بعد وضعى تقاوى الذرة بالترعة، وكان ينوى زرع أرضه بالذرة الحراتى، ونسيت ربط راس الشوال بالحبل، فانفرطت بذور الذرة فى الترعة، وعندما رأى سليم البذور تغرق فى الماء، قال: " ارتحت، خربت بيتى يا بن زبيدة! " خلعت ملابسى، ورميت نفسى فى الترعة رغم برودة الجو؛ لألم البذور، لكنها انفرطت كلها بالمياه بسبب شدة التيار ".

اقترب الطائر، ولفنى بعشق بين أجنحته، وطار فوق الحقول، كنت خائفًا، ومذهولاً، فحضنت ذيله، طبطب عليه قبل طيرانه، المطر تحول الي سيول، فاشتد خوفى، أحس برعبى فعاد ورفعنى فوقه وربطنى كي لا أقع وطار.

لمحت أمى فوق سطوح المنزل تقطِّع قشر البطيخ للبط والوز، وتحكى لهم عنًّا، كانت الطيور تسمعها، وتلهو وتقذف بقشر البطيخ خارج الطبق بعد شبعها، ورايت أبى يجلس على المقهى المجاور لمنزلنا يلعب الدومينو، ووجهه المملوء بالبهجة، وهو يكسب العشرة وراء العشرة، ويسقيهم الجميع ما لذ وطاب على حساب عمى راشد المهزوم.

كدت الوقوع وهو ينحنى، ويعود فوق الحقول لأشاهد سليمة تسرق برسيم عمى طه، ويلمحها "مبروك ركيبة"، وهو جالس فى العشة، فتترك بُردة البرسيم، وتدخل العشة، وتمسك بقضيبه مرة واحدة وتقول: " يا راجل يا علق، بنده عليك علشان تساعدنى، قبل ما يجى طه، عامل نفسك مش سامعنى؟ " يقبض مبروك على أردافها الممتلئة أ ويرفعها للسماء بعد تعرية فخذيها، ويخلعها سروالها بخفة لم ألحظها، ويدخل قضيبه المبتل فى فرجها المتوهج، ألمح عيونها المملوءة نشوة، بعد أن يبرك فوقها كالجمل، ويكاد يخنقها ويفتك بفرجها، وهى تتأوه بشبقٍ لم أشاهده فى حياتي.

انحنى الطائر مرة أخرى ناحية البلدة؛ لأرى أم حسين وهى تسخن بقايا الخبز على النار، فى مدخل منزلها، لتضعه فى اللبن وتضع عليه السكر، وتنادى حسين وزوجته هنية؛ فيدخل الحليب جسمهما وينعشهما، ويخرج البرد الذى يملئ ضلوعهما، وترمى بقايا الأشجار، وأقراص الروث فى الركية، ليهرب البرد في السماء.

أمسك حسين بيد هنية وشعرها الذى عرته أمام أمه لتعيد ترتيبه بقمطتها الحمراء، وسمعت همس أم حسين بعد اقترابى من سطح منزلهم وهى تقول لهنية " اتلمى يا بت... مالك هيجة ليه ياوسخه " تدللت هنية وقالت: " إيه يا أمه ، مش شايفة ابنك هو اللى قاعد يدعك فىّ "، خجل ابنها وقال: " أنا يا بت؟ ده أنا عايز أدفيكى "، أمسك شعرها برفق وقال: " يلى يا بت على الأوضة.. خشى علشان أوريك ياكدابة".

انحنى الطائر عند مدخل القرية، بجوار منزل "أم تيسير" لأجد صباح ابنتها تلعب مع المطر، وقد عرت نصف صدرها فبرز متفتحًا، مملوءًا نضارة، لمحها عفيفى فاقترب منها وحاول لمس نهديها، لكنها زجرته وقالت: "غور فى داهية بعيد "، وتركت مياه المطر تلامس جسدها وتغسلها، ذهل عفيفى حين لمح نن عينيها حزين، لم يكن يتصور أن صباح تحزن، فمال عليها وأخذها بحضنه ، وطلب منها غفران جهله، وقبوله عبدًا، كانت صباح غير مصدقة فقالت: "يعنى مش هتعايرنى وتقولي يابنت الفاجرة، ولا هتبهدلنفي الزرايب "، رد عفيفى المنحنى على ركبتيه فى وحل المطر: " عمري"، قالت صباح: " يعنى هتجيب كل حاجة، وهتستتتنى، وتهنينى وعمرك مهتزعلنى؟ " قبَّل عفيفى يديها، وقال: " كل ما تطلبينه سألبيه، أنتى مليكتى، فاقبلينى".

أخذنى الطائر إلى شارع الكفر التي ترمي فيه السماء بأطنان المياه فتحيله الي برك للطين، عافر اللبانون بدراجاتهم كى يخرجوا منه سالمين لينزلوا بألبانهم إلى شوارع الأفندية البعيدة، ليبيعوا رزق ماشيتهم.

كان الطائر يغنى حين نظرت مرة واحدة إلى حقلنا لأجد عمى وهو يمسك فأسه ويجرى وراء منصور الفأر، يحاول قتله، بعد جرح أخى فى وجهه وغرقه فى دمه، طلبت من الطائر أن يهبط هناك، فقال: " لا تخف لن يقتله "، قلت: " أرجوك اهبط ، كيف أستكمل طيرانى وأخى غارق فى دمائه، لقد جرح أثناء دفاعه عن ارضنا، أرجوك أنزلنى لأدافع عنه "، وأمام رغبتى هبط الطائر، وحين قابلت عمى ترك فأسه مدهوشًا من نور وجهى.

ضربت منصور بالشومة ، وفلقت رأسه، وحين اقترب منى أخوه غرست أصابعى فى عينيه ، وذهل عمى من جبروتى وقال: " كفاية عليهم كده.. كفاية ".

تركناهما غارقين فى خوفهما ، ورجعنا إلى زريبة الماشية؛ لنشعل النار مرة أخرى، كى نتدفأ من البرد القارس، كان المطر قد خف، فبحثت عنه بين الأشجار، ووراء العشة، لكنه كان قد اختفى.

"أرض المصرف"

كيف اغتالونى بجوار المصرف البحرى وأنا أتمدد على جسره والعصافير تحيطنى من كل اتجاه؟ كيف استطاعوا أن يحولونى إلى وحش كاسر، تظهر أنيابه فى وجه محبيه؟

أتذكر أننى كنت أركب الحمارة، وأدلدل أقدامى، لتقترب من الأرض، وأسعد بحركتى، كلما أسرعت، وأشعر بظهرها كأنه مراجيح ، اليوم أعلنوا أن أرض المصرف ليست ملكنا، واتفق الكَفْر كله على استردادها؛ كى يقيموا مكانها ناديًا للشباب، ليلعبوا البنج والبونج ، صرخ أبى: "لن نسلم الأرض، سنموت غدًا، قبل أن يضعوا فيها الأسمنت ".

هل تشممت رائحة هواء المنزل تلك الليلة؟ كان أبى ينظر إلينا، ويقول: " لن نسلم "، وحين كانت أمى تحاول تهدئته، كان يسب الدين ويقول: " اسكتى يا مرة، لن أخرج منها الا علي جثتي".

كانت أخواتى البنات ينظرن إليه ويرتعشن، ثم انزوين واحدة تلو الأخرى بالحجرة، ليبتعدن عن شعاع الذئب المتطاير من عينه، كنت أشفق عليه، وأسأل نفسى: " ماذا تعنى أرض المصرف، ليقرر الموت قبل أخذها؟ هل هى أغلى من حياته، ألا يستحق حلمه من أجل قطعة أرض يزرعها، أن نسانده؟ "

كنت الوحيد الذى وافقته، وقلت فى صمت: " سنموت قبل أن يأخذوها منك "، فى الصباح، وحين أتى أهل الكفر مدعمين بالعمدة، وشيخ البلد، واللصوص لينتازعوها، طار عقلى، وأرسلت شعاع الموت من عينى عليهم فذهلوا، وتحجرت أقدامهم على سكة البلد.

كنت كالنسر، أمسكُ الفأس وأقف على ناصية الأرض، وأقول: " اقتربوا حتى ياخذكم الموت"، تراجعوا للخلف، بعد أن هاجمهم النسر، تراجعوا فى خوف وجبن مذل، دون أن يعطونى ظهرهم.

ساروا كالفئران حتى دخلوا عششهم وتتحنح العمدة، وقال لأبى: "هات الواد دهه يا غنيم وتعالي الدوار"، لكن أبى قال بفخر: "محدش هيجى إلا أنا، لو عايزين تشوفوا الموت حد يلمسه".

وافق العمدة أمام شعاع الذئب الذى أرسله أبى من عيونه، وأخذه معه؛ ليحرر محضرًا ضده، وعاد أبى بعد خروجه من الحبس إلى أرض المصرف المزروعة بالقمح، دون أن تتجسها

أقدامهم، حين رآنى كان قلبه يرفرف، وسألنى:" كيف فعلتها؟ " كنت خجلاً من عطفه علىّ وإعجابه، وقلت فى صمت: " لم يكلفنى الأمر شيئًا، فقط آمنت بك، لأنك تستحق زرعها".

"**الموت**"

تفاجئنا الحياة مرة واحدة، وتُسائلنا: " ما أهميتنا؟ " وتتركنا ندور فى الشوارع؛ نبحث عن الإجابات التى لم نعثر عليها، ومع ذلك نستمر فى جرينا كل صباح، لاحتياجنا إليها، وحين نتعب نجلس حزانى صامتين، كأننا موتى، لكننا نبتهج مرة أخرى، حين يقذفنا العابرون بالسؤال: " ما فائدتكم ؟ "

فى كل يوم نصحو من النوم، نغادر المنازل، نبحث عن الرزق " المنتور" بالشوارع، ونجرى مدهوشين من نعمة الطبيعة التي تلقى علينا الطعام، فننطلق، وبدلاً من شكرها، نشكو قلة حيلتنا؛ للحصول على أكبر قدر من الرزق، وحين نحصل عليه نهدأ، ونعود إلى منازلنا كسالى، ونعيش الأيام المتشابهة، وحين نفقد تلك الروح مرة أخرى، نتساءل: " أين سنجدها؟ " ونبدأ من جديد رحلة البحث عن معنى.

قال صديقى: " حين حصلت عليها قررت التوقف " ومات فى اليوم التالى، تذكرت وقتها كل الذين قررو فجأة التوقف.. لماذا ماتوا؟

كنت أبحث عنهم وسط الأماكن التى عاشوا فيها، أتشمم ملامحهم ورائحتهم ، لكن الأيام التى تسرقنا سخرت منى وقالت: " مر عشرون عامًا... ألا تتذكرهم؟ "

كنت متيقنا من وجودهم جميعًا إذ ذهبت للمدافن، كانوا ينادوننى بنبرة حالمة، لم أسمعها قبل ذلك، أبى، أمى، ستى، جدى، أعمامى، عماتى وخالاتى وجيرانى وأصدقائى، رحلوا فجأة وهم يقولون: " إياك أن تفقدها، إياك أن تتوقف ".

لعنتهم جميعًا وسألتهم: " لماذا تطلبون منى ما لم تستطيعوا القيام به؟ لماذا تطلبون منى الاستمرار والمقاومة وأنتم رفضتموها وتوقفتم؟ سوف أذهب تحت الأرض أتونس بكم؟ " كانوا يغادروننى مندهشين حزانى على ضعفى.

فى آخر اليوم، أجلس إلى مكتبى، الذى يتوسط الحجرة، بعد فقدهم للأبد حائرًا من نظرة عيونهم وملامسة أياديهم، غير مبالٍ بمصيرى، وأسأل نفسى: " هل أتوقف أم أقاوم وأستكمل ؟ هل أختار لحظة توقفى، وأنهى الالعيش بالخرابة التى ترفض الإجابة عن حيرتى؟ " حين طالت اللحظة وجدته يدخل المكتب ويصرخ: " يخرب بيت أمك، إنت لسه عايش " كان صديقى الذي لم يفارقني.

الوراق

٢٠٠٩-٢٠١٠